في التنوير الإسلامي

« ٤٣ »

القدس

بين اليهودية والإسلام

تأليف

د / محمد عمارة

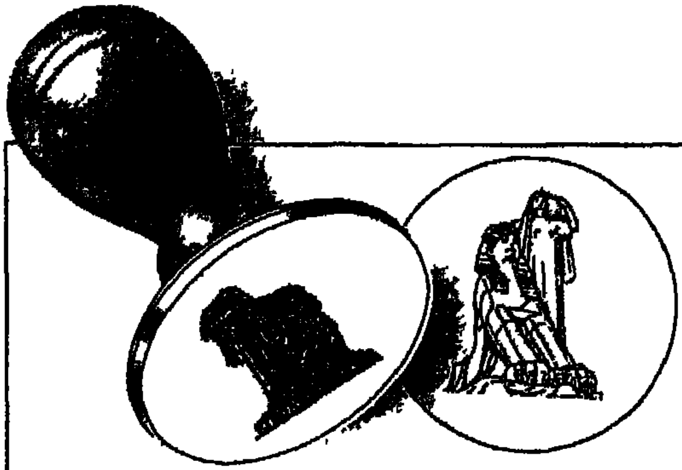
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

في التنوير الإسلامي ٤٣

القدس
بين اليهودية والإسلام

تأليف
د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم الكتاب	القدس بين اليهودية والإسلام
اسم المؤلف	الدكتور / محمد عمارة
إشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	نوفمبر ١٩٩٩م
رقم الإيداع	١٥٩٣٠ / ١٩٩٩م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1154 - 3
الناشر	دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .
	مدينة السادس من أكتوبر .
	ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط)
	فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
	ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥
	فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
	ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤
	فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

تقديم

من القرآن الكريم نتعلم منهاج التعامل مع دعاوى الخصوم . .

لا نتجاهل ما يدّعون . . ولا نصادر ما يقولون . . وإنما نجادل بالتى هى أحسن . . ونحاور بالمنطق والحجة والبرهان . .

وإذا كنا فى إطار المؤمنين بالله - سبحانه وتعالى - وقرآنه الكريم ، ورسوله ﷺ ، نستدل بآيات الكتاب وأحاديث السنة النبوية ، فإن الاستدلال بهذا الحق وقف على من يؤمن بأنه حق . . أما إذا كان الحوار مع دعاوى الذين لا يؤمنون بالله ، ولا بقرآنه ، ولا برسوله ، فإن المنطق العقلى والحجة البرهانية هى أدواتنا فى الحوار . .

ذلك بعض ما يعلمنا إياه القرآن الكريم . .

● فعلى حين كان أهل الشرك والوثنية هم الذين يدعون إلى منهاج « المصادرة » . . مصادرة آيات القرآن الكريم وبراهينه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)** ﴾ [**فصلت** : ٢٦] وجدنا القرآن الكريم يستحث هؤلاء المشركين على أن يأتوا بما لديهم من « حجج » ، ويبرزوا ما لديهم من « علم » ، ويعلنوا ما فى حوزتهم من « براهين » ، ليرد عليها بالمنطق العقلى والبراهين اليقينية . . ﴿ . . . **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن**

كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١ ، النمل: ٦٤] ، ﴿... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤)﴾ [الأنبياء: ٢٤] ، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

بل ويعلّمنا القرآن الكريم أن هذا هو المنهاج الإلهى حتى فى يوم الحساب .. ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾ [القصص: ٧٥]

● وعندما حاول المشركون زحزحة القرآن عن مقام الإعجاز الإلهى ، ونسبته إلى الشعر ، والادعاء بأن الرسول ﷺ ما هو إلا شاعر .. ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ (٥)﴾ [الأنبياء: ٥] احتكم المنهاج القرآنى إلى الواقع الذى عاشوه وعايشوه .. فمحمد ، الذى ولد ونشأ بين ظهرانيهم ، لم يعرفوا عنه إبداع الشعر فى يوم من الأيام ، ولا الاهتمام أو الامتلاك لما ينبغى للشعر من أدوات ، وذلك فضلاً عن البون الشاسع بين نظم القرآن

ونظم الشعر، الذى هم فيه خبراء .. ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

وعندما زعم المشركون أن هذا القرآن، الذى جاء به محمد، إنما هو من إبداعه واختراعه، فهو قول بشر، وليس وحيًا إلهيًا .. احتكم القرآن - فى مجادلتهم - إلى المنطق العقلى والبرهان اليقينى .. فهم بشر كمحمد، ولهم فى الفصاحة دُرْبة فائقة، وثمرات متألقة فى سماء البيان، فإذا كان هذا القرآن مما يتأتى لإبداع بشرى، فليأتوا - وهم الفصحاء - بحديث مثله .. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وعندما ذهبوا فزعموا أنه من إملاء «جبر الرومى»، يمليه على محمد، سخرت الحجة القرآنية من هذا الادعاء السقيم .. «فجبر الرومى» أعجمى، فكيف يملى الأعجمى هذا الإعجاز الذى أدهش وأعجز أساطين العرب البلغاء ؟! .. ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل: ١٠٣].

● وعندما كان المشركون ينكرون ويستنكرون البعث والإحياء

للعظام النخرة والأجساد التى طواها التحلل والفناء ، لم يكن منهاج القرآن الكريم فى الحوار والجدال يكتفى بالإشارة إلى قدرة الله ، القادر على كل شىء . . وإنما كان يحتكم إلى المنطق الواقعى الذى يعيشه هؤلاء المنكرون والمستنكرون . . ألم ينشئ الله هذه العظام والأجساد وكل المخلوقات فى نشأتها الأولى ، التى يحيونها ويعيشونها ؟ . . وأليست الإعادة - عادة ودائمًا - أخف وأولى وأسهل من الابتداء ؟؟ . . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٥١) ﴾ [الإسراء : ٤٩ - ٥١] .

هكذا يعلمنا القرآن الكريم منهاج التعامل مع دعاوى الخصوم . . ألا نصادر ما يدعون . . وألا نتجاهل الذى يزعمون . . وألا نكتفى بترديد الحق الذى نؤمن به ، وإنما لابد من محاورتهم وتفنيد دعاواهم ، بالمنطق البرهانى والحجج العقلانية ، التى هى بمثابة « العملة الدولية » و « الآليات العامة » المعتمدة فى كل الأنساق الفكرية ، ومن قبل كل أصحاب العقول . .

هذا هو المنهاج القرآنى . . الذى نطبقه فى صفحات هذه الدراسة . . حول القدس الشريف . .

* * *

فكثيرة هى الدراسات التى كتبها العرب والمسلمون عن مدينة القدس الشريف ، والتى زخرت صفحاتها ببراهين الحق الفلسطينى والعربى والإسلامى فى القدس . . لكنها نادرة تلك الدراسات التى اهتمت بمناقشة دعاوى اليهود والصهاينة والاستعمار الغربى حول « الحق » اليهودى فى هذه المدينة المقدسة . . وأندر من ذلك تلك الدراسات التى فندت دعاوى هؤلاء الخصوم بالمنطق العقلى ، والحجج البرهانية ، وليس بترديد مأثوراتنا الإسلامية حول الحق العربى والإسلامى فى القدس الشريف . .

ونحن ، فى صفحات هذه الدراسة ، قد اخترنا :

● وثيقة تمثل دعاوى قمة الغلو الصهيونى - « رابطة الدفاع اليهودية » - . . كتبها مؤسس هذه الرابطة « دانيال ياسبس » . . وفيها كل الدعاوى التى يستندون إليها فى أن « القدس يهودية » ، ولا علاقة لها بالإسلام ، ولا مكانة لها في حياة المسلمين ، منذ حياة رسول الإسلام ﷺ وحتى الحقبة الراهنة فى الصراع حول هذا المدينة المقدسة . .

● ثم قمنا بمحاورة هؤلاء الخصوم ، وتفنيد جميع دعاواهم ، بالمنطق العقلانى ، الذى يحتكم إليه ويستنجد بآلياته جميع العقلاء ، فى كل الديانات والحضارات والقارات والعصور . . لتصل بنا هذه المحاورة إلى أن القدس إسلامية - هكذا كانت ولا تزال - وأنها لا علاقة لها لا باليهودية كدين ، ولا باليهود القدماء ، فضلاً عن الصهاينة المحدثين . .

● ثم ختمنا صفحات هذه الدراسة بحديث عن ماذا تعنيه إسلامية مدينة القدس ؟ . .

هل تعنى الاحتكار الإسلامى لقدسيتها دون الآخرين من أصحاب المقدسات ؟ . .

أم تعنى هذه الإسلامية للقدس إشاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات ؟ . .

ولقد احتكمنا فى هذه الدراسة ، أيضًا ، إلى الواقع التاريخى ، الذى عاشه كل أصحاب المقدسات ، ومنهم اليهود . . ذلك الواقع الشاهد على أن القدس كانت ، دائمًا ، تقع فى « الاحتكار » من قبل من يسيطر عليها من غير المسلمين - الرومان ، فى عصر وثنيتهم وفى عصر نصرانيتهم . . والصليبيون الفرنجة . . والصهاينة المعاصرون - بينما كانت السيادة الإسلامية على القدس هى وحدها المؤتمنة على فتح هذه المدينة أمام الجميع ، وإشاعة قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات . . لأن ذلك جزء من عقدة الإيمان الإسلامى . . وليس مجرد تسامح أو حق من حقوق الإنسان . .

* * *

وإذا كانت القدس الشريف - فى الصراع الراهن بيننا وبين الإمبريالية الغربية ، وشريكتها اليهودية الصهيونية - هى « رمز » هذا الصراع المركب والمعقد - الحضارى . . والدينى . . والتاريخى . . والسياسى . . إلخ - وهى ، كذلك ، بوابة التحرير

والانتصار . . فإننا نسأل المولى ، عز وجل ، أن ينفع بهذه الصفحات ، وأن يجعلها سلاحًا من أسلحة الوعى الإسلامى ، والاستنارة الإسلامية ، فى هذه المعركة المصيرية . . إنه ، سبحانه وتعالى ، خير مسئول وأكرم مجيب . .

دكتور

محمد عمارة

وجهة النظر اليهودية :
القدس يهودية .. وليست إسلامية

« أدرك مهندسو اتفاقات أوسلو من البداية خطورة وأهمية القدس ، فحاولوا تأجيل قضيتها إلى المرحلة النهائية من التفاوض ، خوفًا من أن تفجر مناقشة مستقبلها قبل القضايا المتفجرة الأخرى الهدنة الهشة بين الإسرائيليين والفلسطينيين .

ولكنهم فشلوا ، فقد اندلعت أعمال العنف - الانتفاضة - عند فتح مدخل جديد للنفق (المؤدى إلى أسفل المسجد الأقصى) فى سبتمبر ١٩٩٧ ، وأدى بناء وحدات سكنية فى قطعة أرض خالية شرقى القدس إلى إيقاف المفاوضات مؤخرًا ، حتى أصبح واضحًا أن الصراع حول القدس لن ينتظر طويلاً ، لذا يجب على العالم الخارجى أن يواجه الدعاوى المتصارعة من قبل اليهود والمسلمين حول المدينة التى دخلها الملك « داوود » قبل ثلاثة آلاف عام .

وإذا فعل العالم الخارجى ذلك سوف يسمع لا شك أكلاشيهات تقريبية توحى بأن القدس « مدينة مقدسة عند الطرفين » وتدل ضمنيًا على تعادل الدعاوى اليهودية والإسلامية حول القدس ، ولكن هذا الاستنتاج خطأ كبير ، فالقدس هى أعظم مدينة دينية بالنسبة لليهودية ، وهى مكان مقدس لا يعتقد فقط بأن تربتها مقدسة بل هواءها أيضًا ، اليهود يصلون فى اتجاهها ويذكرون اسمها فى صلواتهم باستمرار وينهون صلاة عيد الفصح بعبارة شوق حزين « العام القادم فى القدس » وينطقون باسم

المدينة « القدس » كلما باركوا طعامهم بعد تناوله .

مصلحة سياسية

فماذا عن دور القدس فى الإسلام ؟ إن أهمية القدس تأتى فى مرتبة ثالثة لأهمية مكة والمدينة ، البلدان اللذان عاش فيهما محمد وشهدا الأحداث الكبرى فى التاريخ الإسلامى ، القدس ليست قبلة المسلمين فى الصلاة ، ولم تذكر باسمها مرة واحدة فى القرآن ولا تذكر على الإطلاق فى صلوات المسلمين ، وهى ليست مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالأحداث التى جرت فى حياة الرسول ، ولم تتحول القدس فى يوم من الأيام إلى مركز ثقافى إسلامى أو عاصمة لدولة إسلامية ، هى فقط اتخذت أهمية بالنسبة للمسلمين بصورة متقطعة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، وكان السبب فى تلك الفترات المتقطعة - كما هى الحال اليوم - سياسيًا والعكس صحيح أيضًا ، كلما تضاءلت المنفعة (السياسية) من القدس ضعفت الحماسة وخمدت المشاعر تجاهها وتراجعت وضعيتها لدى المسلمين .

(وعلى حد زعم الدراسة) فى عام ٦٢٢ ميلادية هرب النبى محمد من بلده مكة إلى المدينة ذات الكثافة السكانية اليهودية ، وعند وصوله - وإن لم يكن قبل ذلك - تبنى عددًا من ممارسات اليهود الدينية مثل الصيام مقابل « يوم كيبور » بيت الصلاة مقابل الكنيس (معبد اليهود) ، قواعد التحليل والتحريم فى الطعام مقابل الكوشير (الأكل على الطريقة اليهودية) .

وتبنى محمد أيضًا طقس اليهود عند الصلاة ، متخذًا جبل الهيكل فى القدس قبلة له وللمسلمين .

وكما يقول الطبرى - أحد مفسرى القرآن القدامى - « اختار الرسول ﷺ البيت الحرام بالقدس لكى يستميل أهل الكتاب (وبينهم اليهود) ، وسعد اليهود بذلك » .

ويرى المؤرخون المحدثون مثل « و . مونتجمرى وات » رائد دراسة السيرة الذاتية لـ « محمد » أن مغازلاته الشديدة لمشاعر اليهود كانت جزءًا من رغبته فى استمالتهم واسترضائهم .

ولكن اليهود انتقدوا الدين الجديد ورفضوا إشارات الرسول محمد ﷺ لهم مما أدى إلى خصامه لهم فى العام ٦٢٤ تقريبًا ، وجاءت الإشارة الدراماتيكية لهذا التحول فى الآيات القرآنية ١٤٢ إلى ١٥٢ من سورة (البقرة) ، والتى تأمر المؤمنين بأن يتوقفوا عن الصلاة فى اتجاه « سوريا » وأن يستبدلوها بمكة (يذكر القرآن ومصادر أخرى أن اتجاه القبلة « سوريا » بينما توضح معلومات أخرى أن سوريا تعنى القدس) .

هذه الحادثة تمثل نموذجًا تكرر عدة مرات فى القرون التالية حين تزايد الاهتمام الدينى للمسلمين بالقدس لأنها تخدم مصالحهم السياسية ، وكلما تغير المناخ السياسى خبا اهتمامهم .

ففى القرن التالى لوفاة محمد دفعت السياسة دولة الأمويين المؤسسة فى دمشق والتى كانت القدس تحت سيادتها ، إلى جعل

المدينة مقدسة فى الإسلام ، حيث فكر الأمويون فى تقليل أهمية الجزيرة العربية بإعلاء قيمة القدس إثر تورطهم فى منافسة ضارية مع قائد مكة المناوئ لهم .

فرعوا « ضربًا » من الأدب يمتدح « مزايا القدس » وفضائلها ، وعملوا على ذيوع وترويج أحاديث وأفعال للرسول ، تعلى من شأن القدس وفى السنوات ٦٨٨م حتى ٦٩١م أقاموا أول بناء ضخم فى الإسلام هو « قبة الصخرة » على قمة بقايا المعبد اليهودى .

(وتستمر الأكاذيب بالقول) : **وفى خطوة ماكرة ودقيقة أعاد الأمويون تفسير القرآن لإيجاد « متسع » للقدس، خاصة فى وصف رحلة محمد ليلاً « الإسراء » والتى ورد فيها** ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ **عندما نزلت هذه الآية القرآنية حوالى عام ٦٢١م كان موجوداً مكان يسمى المسجد الحرام فى مكة، وعلى العكس كان « المسجد الأقصى » تعبيراً مجرداً، وليس مكاناً، وفهمه بعض المسلمين كمجاز أو مكان فى السماء، ولو كان « المسجد الأقصى » موجوداً على الأرض فى ذلك الوقت لكانت فلسطين أرضًا مختلفة (عن المسجد الأقصى) فتلك المنطقة تذكر فى القرآن (سورة الروم - الآية ١) باسم « أدنى الأرض ».**

ولكن الأمويين بنوا فى عام ٧١٥م مسجدًا فى القدس فوق جبل الهيكل تمامًا ، وأسموه المسجد الأقصى ، **بذلك لم يقحم الأمويون القدس فى القرآن فقط، بل أيضاً أعطوها دوراً بارزاً فى حياة الرسول بأثر رجعى،** لأنه إذا كان المسجد الأقصى فى القدس

فإن رحلة محمد ليلاً « الإسراء » والصعود اللاحق به (المعراج) إلى السماء تم فوق جبل الهيكل .

أى أن القدس تصبح مهمة دينيًا فقط عندما تبزغ أهميتها السياسية ، وكذلك عندما انهارت الدولة الأموية فى العام ٧٥٠ م دخلت القدس فيما يشبه الظلام الدامس ، ففى القرون الثلاثة ونصف القرن التالى ، فقدت الكتب التى تشيد بمدينة القدس الدعم الذى كانت تحظى به ، ولم تتوقف فقط عملية بناء المسجد الرائع ، بل إن المبنى الموجود تهاوى (انهارت قبة الصخرة عام ١٠١٦م) ، فيصف مسلم من القرن العاشر الميلادى أحوال القدس متحسرًا : المتعلمون قلة والمسيحيون كثيرون ، وحكام الدولة الجديدة استنزفوا القدس ، والريف المحيط بها ، من خلال ما أسماه « ف . إى . بيترز » من جامعة نيويورك ، جشعهم ولا مبالاتهم .

الحملات الصليبية

ولاحظ بيترز أن الحكم الإسلامى للقدس فى بداية القرن العاشر الميلادى كان « عرضيًا متقطعًا » بدون أى أهمية سياسية خاصة ، وفى ظل ما يشبه اللامبالاة الإسلامية بالقدس أثارت الحملة الصليبية على المدينة عام ١٠٩٩ ، رد فعل ضعيفًا للمسلمين ، كما يلاحظ إيمانويل سيفان من الجامعة العبرية ، المتخصص فى تلك الفترة : « لم ير الناس فى ذلك صدمة أو إحساسًا بالخسارة الدينية أو الذل ، ولم يتنام جهد جاد لاستعادة القدس إلا فى عام ١١٥٠ عندما أكد حكام المسلمين على أهمية القدس

للإسلام ، وظهرت مرة أخرى الأحاديث التى تعلى من شأن القدس والكتب التى ترصد مزاياها وفضائلها ، ووضع حديث على لسان الرسول « محمد » يقول إنه بعد موته يكون سقوط القدس فى يد الكفرة الكارثة الثانية التى تواجه الإسلام .

ومرة أخرى تراجع اهتمام المسلمين بالقدس ، بعد استيلاء صلاح الدين عليها وعودتها إلى أيدى المسلمين ، عندما تخلى عنها أحد أحفاد صلاح الدين فى ١٢٢٩ م للإمبراطور فريدريك الثانى فى مقابل وعد ألمانى بدعمه عسكريًا فى مواجهة أخيه الذى ينافسه على الملك ، ولكن عودة القدس إلى أيدى المسيحيين استفزت مشاعر المسلمين بقوة ، ونتيجة لذلك استعادها المسلمون تحت حكمهم فى عام ١٢٤٤ ، وهنا يقدم علم النفس ملاحظة مفادها أن فرسان الصليب القادمين من بلدان بعيدة ليجعلوا من القدس عاصمتهم ، رفعوا من قيمة المدينة فى عيون المسلمين أيضًا ، وكما يقول سيفان لقد أصبحت مستهدفة بقوة من أعداء الدين ، وهذا جعلها مقربة من قلوب المسلمين ، من خلال نوع من الأعراض المرضية للنظر فى صورة المرآة .

عودة الظلام

ثم سقطت المدينة مرة أخرى فى ظلام دامس لما يقرب من ثمانية قرون ، وفى لحظة من اللحظات تراجع عدد سكان المدينة إلى حوالى ٥٠٠٠ نسمة ، وهجر حرم جبل الهيكل وأصبح خرابًا ، وفى ظل الحكم العثمانى ١٥١٦ - ١٩١٧ ، عانت القدس مهانة

أن تعامل كمزرعة ، تقدم جباية على غير المقيمين فيها ، وابتليت أيضًا بموظفين شديدى الجشع يجمعونها كل عام ، ورفعت السلطات التركية مواردها من المدينة بابتزاز الزوار الأوروبيين ، بينما لم تبذل إلا جهدًا محدودًا فى تحسين اقتصاد القدس ، وتظهر قوائم الضرائب أن « الصابون » كان المنتج الوحيد الذى تصدره المدينة ، ووصف چورچ سانديز للمدينة فى ١٦١١ خير دليل ، حيث اكتشف كثيرًا من الأكاذيب (المبانى القديمة تهدمت فيما عدا النذر القليل ، أما المباتى الجديدة فوضيعة) .

وفى عام ١٨٥٠ زارت « جوستاف فلوبير » المشهورة بـ « مدام بوفارى » القدس فوجدت أطلالاً فى كل مكان ، وكتب مارك توين فى عام ١٨٦٧ أن القدس فقدت كل جلالها القديم ، وأصبحت قرية فقيرة بائسة .

اليهود يوقظون المسلمين !

وفى العصر الحديث يلاحظ الأستاذ الجامعى الإسرائيلى « هافا لازاروس - يافى » أن القدس أصبحت محط النشاط العربى الدينى والسياسى فقط عند بداية هذا القرن ، وفقط بسبب النشاط اليهودى الحديث فى المدينة وادعاءات اليهود حول حائط المبكى ، وقد أشعل أيضًا الحكم البريطانى للمدينة من ١٩١٧ وحتى ١٩٤٨ ، عواطف المسلمين تجاهها ، فجعل الزعيم الفلسطينى (ومفتى القدس) الحاج أمين الحسينى من جبل الهيكل مركزًا لمناهضة الصهيونية ، وعلى سبيل المثال زيادة الدعم المالى من

العـالم العـربى من أجل إعـادة ترمـيم قـبـة الصـخـرة ، وأعطى السياسيون العرب للقدس مكانة بارزة ، فمثلاً أثنى زعماء العراق بصورة متكررة على المدينة حيث صلوا فيها بالمسجد الأقصى ، وخطبوا خطبًا حماسية .

الهاشميون والقدس

ولكن عندما استرد المسلمون المدينة القديمة ، بمقدساتها الإسلامية فى عام ١٩٤٨ سرعان ما فقدوا اهتمامهم بها ، تركزت قمة الإثارة عندما دخلت القوات الأردنية المدينة فى ١٩٤٨ ، وكان الشاهد عليها تتويج الأسقفية القبطية الملك عبد الله ، ملكًا للقدس ، فى نوفمبر من ذلك العام ، وتلاها على الفور الملل المعتاد من المدينة ، وانحسر ولع الهاشميين بالقدس ، حيث يقيم بعض أعدائهم اللدودين ، وحيث قتل الملك عبد الله نفسه فى عام ١٩٥١ ، والحقيقة أن الهاشميين بذلوا جهودًا مكثفة للتقليل من أهمية المدينة المقدسة لصالح عاصمتهم عمان ، وتحولت تحت أيديهم من عاصمة إدارية بريطانية إلى مدينة ثانوية أو هامشية ، بعد أن علق العمل فى المكاتب الحكومية بها ، وأغلق الهاشميون بعض المؤسسات المحلية (مثل اللجنة العربية العليا) ونقلوا البعض الآخر إلى عمان (مثل خزانة الوقف الفلسطينى) .

ونجحت جهود الهاشميين ، فتحولت القدس العربية مرة أخرى إلى بلدة محلية معزولة ، بلدة أقل أهمية من نابلس ، أصبح اقتصادها كاسدًا ، وغادرها الآلاف من العرب ، وبينما زادت

الكثافة السكانية فى عمان خمسة أضعاف فى الفترة من ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٧ ، كانت نسبة الزيادة فى القدس ٥٠ ٪ فقط .

واختيرت عمان لتكون مقرًا لأول جامعة أردنية ، ومقر الكثير من قصور الأسرة الملكية ، وربما كان أقصى ما وصلت إليه الاستهانة بمدينة القدس ، أن إذاعة الأردن راحت تنقل « صلاة الجمعة » من مسجد فى عمان بدلاً من أن تذيعها من المسجد الأقصى !

والعرب الآخرون نسوا القدس

ولم يقتصر تجاهل القدس على الأردن ، فقد اختفت فعليًا من خريطة الدبلوماسية العربية ، ولم يأت قائد عربى إلى القدس فى الفترة من ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٧ ، وحتى الملك حسين لم يزرها إلا نادرًا .

وفيصل ملك السعودية العربية الأسبق ، والذى تحدث مرارًا بعد ١٩٦٧ ، عن حنينه إلى الصلاة فى القدس ، لم يبد مطلقًا راغبًا فى الصلاة فيها عندما كانت الفرصة متاحة أمامه من قبل ! والجدير بالملاحظة أيضًا أن الوثيقة التأسيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية - الميثاق الوطنى الفلسطينى فى ١٩٦٤ - لم تذكر القدس ولو مرة واحدة .

كل ذلك تغير بصورة مفاجئة بعد يونيو ١٩٦٧ ، عندما دخلت المدينة القديمة تحت السيطرة الإسرائيلية ، وكما حدث فى الحقبة

البريطانية عاود الفلسطينيون وضع القدس فى « قلب » برنامجهم السياسى ، وأبرزت صورة قبة الصخرة فى كل مكان ، من مكتب ياسر عرفات وحتى محال البقالة ، ووصف دستور منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٨ القدس بأنها «مقر منظمة التحرير الفلسطينية» .

عودة الاهتمام

ولم ينفرد الفلسطينيون ببعث اهتمامهم بالقدس بين العرب ، وحسب إشارة لازاروس يافى ، بدأ حكام المسلمين مجدداً فى التأكيد على « حرمة وقداسة » القدس فى التراث الإسلامى ، بالضبط مثلما حدث فى فترة الحروب الصليبية ، إلى حد إزاحة الغبار عن الأحاديث القديمة ، التى تدعم ادعاءاتهم ، وأصبحت القدس الدعامة الأساسية لقرارات الجامعة العربية والأمم المتحدة وراح حكام الأردن والسعودية البخلاء على القدس فى الماضى ، يقدمون بسخاء هباتهم إلى وقف القدس .

وكما كان الأمر فى زمن الانتداب البريطانى ، أصبحت القدس بدءاً من ١٩٦٧ الأداة الرئيسية لحشد الرأى العام الإسلامى الدولى وأعطى « حريق فى المسجد الأقصى » للملك فيصل الفرصة كى يدعو ٢٥ حاكم دولة مسلمة ، ويؤسس منظمة المؤتمر الإسلامى ، واستندت السلطة الشيعية الحاكمة فى لبنان بانتظام على موضوع تحرير القدس لكى تحشد مواطنيها نحو تحرير لبنان ، ومنذ قيام الثورة الإسلامية فى إيران والعملة الإيرانية من « الريال » إلى « الألف ريال » تحمل صورة قبة الصخرة وفى أثناء الحرب

الإيرانية مع « قوات صدام حسين » فى الثمانينيات تلقى الجنود الإيرانيون خرائط قديمة ، موضوع عليها طريق إلى القدس يمر عبر بغداد ، وكذلك أعلن آية الله خومينى يوم الجمعة الأخيرة من رمضان « يومًا للقدس » ليصبح مناسبة عظيمة للخطب النارية ضد إسرائيل .

(وتستمر المزاعم والأكاذيب الإسرائيلية) منذ الاحتلال الإسرائيلى حاول بعض الأيديولوچيين وضع الأسس التاريخية لإلحاق القدس بالإسلام من خلال ثلاثة ادعاءات رئيسية كلها محل شك تاريخيًا ، أولاً : الجزم بأن صلة الإسلام بالقدس تسبق صلة اليهود بها ، فتؤكد - مثلاً - غادة تلحمى المتخصصة فى كلية « ليك فورست » أنه هناك مدن مقدسة أخرى فى الإسلام ، ولكن القدس لها مكانة خاصة فى قلوب وعقول المسلمين لأن مصيرها كان دائمًا توءمًا لمصيرهم .

دائمًا ! دائمًا ! كيف إذن ، وإذا كان تاريخ إنشاء القدس سابقًا على الإسلام بحوالى « ألفى عام » من الزمان ! فكيف يدعى أولئك المسلمون قدم صلة الإسلام بالمدينة ؟ يفسر لنا هذه المفارقة « إبراهيم هوبر » مدير الاتصالات الوطنية فى مركز واشنطن للعلاقات الإسلامية - الأمريكية بقوله : إن صلة المسلمين بالقدس لا تبدأ من الرسول محمد ولكنها تبدأ بالأنبياء والرسل السابقين ، إبراهيم ، وداود ، وسليمان ، وعيسى الذين يعتبرون فى الإسلام أيضًا رسلاً وأنبياء ، بكلمات أخرى فإن الشخصيات

المركزية فى اليهودية والمسيحية كانت نماذج أولى من المسلمين .

ثانيًا : هناك ادعاء يمثل مفارقة تاريخية كاملة مفاده أن القرآن ذكر القدس بين آياته ، **ويرى هوبر وآخرون أن القرآن يشير إلى القدس من خلال قلبها الإسلامى، المسجد الأقصى، وهو ادعاء بلا أى مصداقية (كما تزعم الدراسة) فالمسجد الأقصى الذى بنى بعد قرن من نزول القرآن لا يمكن أن يفسر به على الإطلاق المعنى الأصلى للآية القرآنية المشار إليها من قبل.**

ثالثًا : ينكر بعض المسلمين أية أهمية للقدس عند اليهود ، فقد أعلن بصراحة كاملة مؤخرًا عبد الملك الدهامشة عضو البرلمان الإسرائيلى أن الحائط الغربى لا علاقة له ، وليس ضمن بقايا المعبد اليهودى ، وذهب الزعيم العربى - الإسرائيلى الأصولى - إلى أبعد من ذلك بقوله : لا يحق لليهود أن يصلوا عند الحائط الغربى ، وبكلمات أكثر إحكامًا للشعار الإسلامى المتشدد « القدس عربية » .

ضد القدس !

ورغم هذه الادعاءات الصماء بأن القدس تنتمى أصلاً إلى الإسلام ، إلا أن الدين الإسلامى يحوى تيارًا ينحسر إلى حد ما لكنه موجود بشكل دائم من النظرة المضادة للقدس ، وربما كان من أبرز أنصار هذه النظرة هو ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) ، أحدالمفكرين فى الإسلام ومن أكثرهم صرامة وتأثيرًا (ويعتبر الوهابيون فى الجزيرة العربية خلفاءه المعاصرين) .

فى محاولته لتطهير الإسلام من البدع والخرافات استبعد ابن تيمية تقديس القدس ، باعتباره اعتقاداً مبتدعًا مصدره اليهود والمسيحيون ، ومصدره تنافس الأمويين القديم مع مكة ، وبوضوح أكثر فإن المسلمين المتفقهين الذين عاشوا فى السنوات التالية للحروب الصليبية يعلمون أن الانتشار الواسع للأحاديث التى تمجد وتمتدح قداسة المدينة سببه محاولة مواجهة الصليبيين ، أى أن مصدره خلاف ومواجهة سياسية ، وبالتالى تعاملوا معها باحتراس وحذر .

لذلك نجد أن ذلك الأمر لم يستقم تمامًا ، فرغم التأكيد على أن الله أمر المسلمين بالتوجه إلى القدس كقبلة للصلاة أولاً ، ثم أمرهم بعد ذلك بالتحول عنها إلى مكة ، وورود بعض الأحاديث التى تحض على أن يصلى المسلم بعيدًا عن قبلة القدس ، فإن رفضًا لهذا التحول ما زال موجودًا على نحو محدود ، فالذى يصلى فى المسجد الأقصى لا يعطى ظهره بدقة إلى منطقة « المعبد اليهودى » الذى يصلى اليهود فى اتجاهه .

القدس ثانوية بالنسبة للمسلمين

إن مسألة الادعاءات الدينية والتاريخية فى القدس تمثل معادلاً متكافئاً للوثائق القانونية، فى أى مكان آخر فى العالم، ومن يستطع أن يثبت صلة أعمق وأكثر امتداداً بالمدينة تكن له فرصة أفضل فى كسب الدعم الدولى لحكمه لها.

وفى هذا السياق ، فإن حقيقة دور السياسة فى إلحاق المسلمين

القدس إلى أنفسهم تتضمن جزئيتين : الأولى : أنها تثبت الضعف النسبى للصلة الإسلامية بالمدينة وهى صلة مصدرها اعتبارات مؤقتة لاحتياج دنيوى ، أكثر من كونها دعاوى عقائدية ثابتة وغير قابلة للتغيير .

والثانية : أنها تثبت أن اهتمام المسلمين لا يتركز فى السيطرة على المدينة بقدر ما يتركز فى إنكار أى سيطرة أخرى عليها .

والقدس لن تكون أبدًا أكثر من مدينة ثانوية بالنسبة للمسلمين ، وعلى النقيض منها تقف « مكة » المدينة الأبدية للإسلام ، مكانًا يعتقد المسلمون أن « إبراهيم » افتدى فيه أخا إسحق « إسماعيل » وقبلتهم التى يصلون إليها خمس مرات كل يوم ، ومن المحرم على غير المسلمين دخولها .

وبذلك يكون كل سكانها مسلمين ، **ومكة تستثير فى نفوس المسلمين الشعور ذاته الذى تثيره القدس فى نفوس اليهود**، وكل ذكر لها يستدعى الخشية فى قلوب المسلمين ، كما كتب ذات مرة عباد أحمد - عضو مؤسسة المجتمع الإسلامى بوسط چيرسى - بكلمات أكثر صراحة ومباشرة ، القدس بالنسبة لليهود هى بالضبط مثل مكة بالنسبة للمسلمين ، وكما أن المسلمين يحكمون « مكة موحدة » فإن اليهود يجب أن يحكموا « قدسًا موحدة »[1] .

---

(١) نشرت نص هذه « الوثيقة » مجلة (الأهرام العربى) عدد ١٠٨ بتاريخ أول محرم ١٤٢٠ هـ الموافق ١٧ أبريل ١٩٩٩ م ، صفحات ١٨ - ٢١ . ولقد قمنا بتفنيدها - فى ذات المجلة - العدد ١١٢ بتاريخ ٢٩ محرم ١٤٢٠ هـ الموافق ١٥ مايو ١٩٩٩ م ، صفحات ٢٢ - ٢٣ .

عندما نناقش « حجج » ودعاوى الآخرين ، حول قضية القدس ، يجب أن نتجرد من منطق صاحب الحق الذى يخاطب ذاته . . فنتحدث بالمنطق « الموضوعى البارد » ، الذى يفند «حجج» الخصوم ، بمنطق هؤلاء الخصوم ، وبلغة العلم وعقلانية الفكر ، لا بالعواطف ، أو حتى بمأثوراتنا الدينية الخاصة التى لا يؤمن بها الآخرون . .

وفى تطبيق هذا المنهج على « وثيقة » « رابطة الدفاع اليهودية » - التى كتبها اليهودى الصهيونى الأمريكى « دانيال ياسبس » - أكبر مساعدى « بنيامين كاهانا » - ابن الحاخام الإرهابى « مائير كاهانا » - مؤسس هذه الرابطة - . . فى مناقشة هذه « الوثيقة » نجد أن صرامة المنطق المجرد - وهو فى الفكر عملة دولية عامة - تقودنا إلى « إسلامية القدس » ، وإلى نفى أية علاقة لهذه المدينة باليهودية واليهود . .

● تقول هذه « الوثيقة » : « إن القدس هى أعظم مدينة دينية بالنسبة لليهودية » .

فهل هذا صحيح ؟ . . وهل هناك علاقة ما بين اليهودية وبين مدينة القدس ؟ . .

لقد روج اليهود هذه الدعوى ، حتى تبنتها الكاثوليكية - ومن قبلها البروتستانتية - فوجدنا بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى ،

يتحدث عن القدس فيقول : « منذ عهد داود ، الذى جعل أورشليم عاصمة لملكته ، ومن بعده ابنه سليمان ، الذى أقام الهيكل ، ظلت أورشليم موضع الحب العميق فى وجدان اليهود ، الذين لم ينسوا ذكرها على مر الأيام ، وظلت قلوبهم عالقة بها كل يوم ، وهم يرون فى المدينة شعارًا لوطنهم » (عن مقال الأنبا يوحنا قلتة - الأهرام فى ١٢ - ٥ - ١٩٩٧ م) .

ووجدنا - كذلك - التحالف المسيحى البروتستانتى - فى أمريكا - تحت تأثير « الصهيونية - المسيحية » - عندما جعل الكونجرس الأمريكى يقرر - ١٩٩٥ م - نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس - وبناءها على أرض الأوقاف الخيرية الإسلامية ! - ينص فى مقدمة هذا القرار على « أن القدس هى الوطن الروحى لليهودية » .

فهل حقًا تمثل « القدس أعظم مدينة بالنسبة لليهودية » - كما تقول « وثيقة » رابطة الدفاع اليهودية ؟ . . وهل هى « شعار الوطن اليهودى » كما يقول بابا الفاتيكان ؟ . . و « الوطن الروحى لليهودية » كما يقول الكونجرس الأمريكى ؟ . .

لنسأل أولاً : ما هى اليهودية ؟

إنها - بالمنطق العلمى المجرد - هى شريعة نبى الله موسى عليه السلام التى جاءت بها الألواح والأسفار التى أوحى الله بها إلى موسى . .

وهنا نسأل - ثانيًا - : هل هناك أية علاقة بين شريعة

اليـهـودية . . ونبى اليـهـودية . . وتوراة اليـهـودية . . وبنى إسـرائيل الذين توجهت إليهم التوراة والشريعة وبين مدينة القدس ؟

إن نبى اليهودية قد ولد ونشأ وعاش ومات ودفن فى مصر ، ولم ترعينه القدس فى يوم من الأيام . .

وإن توراة اليهودية وشريعتها ووحيها قد نزلت فى مصر ، وباللغة الهيـروغليفـية - وقبل وجود اللغة العبـرية - ولم تشهـد القـدس - عبر تاريخها الطويل - شيئًا من ذلك فى يوم من الأيام . .

فأين هى العـلاقة الروحية - عـلاقة « الوطن الروحى » - التى يتحدثون عنها بين اليهودية وبين القدس ؟!

● فـإذا قـالوا - وهم بالفـعل يقـولون - بلسـان « وثيـقـة » رابطة الدفـاع اليـهودية : « إن اليـهـود يصلون فى اتجاه القـدس ، ويذكـرون اسـمها فى صلواتهم باستـمرار ، ويُنهون صلاة عيد الفصح بعبارة شوق حزين : « العام القادم فى القدس » . .

فـإننا سنقـول لهـم : حسنًا ! . . لكن ، هل صـلاة أبناء دين من الأديان تجـاه مـدينة من المدن ، ترتب لأبناء هذا الدين حـقـوقًـا «وطنية . . وسياسية . . وسيادية » فى هذه المدينة ؟

إن الأرثوذكس - الروس ، واليـونان ، والصـرب ، والمصـريين ، والأحباش - يصلون جميعًا تجاه القدس ، وإليها يحجون ، وفيها يتـقـدسـون . . ومـعـهـم ، فى ذلـك ، كل شـعـوب الكاثوليك ، فى جميع أنحاء الدنيا ، وكذلك كل الأمم والقوميات البروتستانتية . .

فهل يرتب التوجه إلى القدس فى الصلاة لكل هذه الأمم والشعوب والقوميات والأجناس حقوقًا « وطنية . . وسياسية . . وسيادية » فى مدينة القدس ؟

إن القول بهذا « المنطق » ، جدير بعالم « النكات » ، وهلوسات ضحايا المخدرات ، ولا علاقة له بأدنى مستويات العقل والعقلاء ! وقس على ذلك توجه المسلمين ، من مختلف الأمم والأوطان إلى مكة فى الصلاة . . وهو الذى لا يرتب لشعوبهم فى مكة أية حقوق « وطنية . . أو سيادية . . أو سياسية » . .

● فإذا قالوا : لقد عاش وحكم فى القدس داود وسليمان عليهما السلام ، وفيها بنى سليمان هيكلاً لليهود . . فسنقول لهم : نعم ! . . لكن هذا لا يقيم علاقة بين اليهودية وبين القدس . . وذلك لعديد من الأسباب التاريخية والمنطقية والواقعية . . منها :

١ - أن داود وسليمان - بمنطق اليهود واليهودية - هم من «الملوك» ، وليسوا من « الرسل والأنبياء » ، ومن ثم فإقامتهم فى القدس وعلاقتهم بها هى علاقة الاستيلاء السياسى والحربى ، وليست علاقة دينية بين القدس وبين اليهودية كدين . .

٢ - وأن علاقة داود وسليمان بالقدس ، كانت - بالنسبة لعمر القدس ، الذى يبلغ الآن ستة آلاف عام - علاقة عارضة وطارئة ، وسريعة الزوال . . فهى قد بدأت فى القرن العاشر قبل الميلاد ، بعد أن كان عمر القدس قد بلغ ثلاثة آلاف عام - فهى قد أسسها « اليبوسيون » ، أجداد العرب الفلسطينيين ، قبل الميلاد بأربعة

آلاف عام - ولم تدم العلاقة بين داود وسليمان ، بل وبين كل العبرانيين وبين القدس وفلسطين أكثر من ٤١٥ عامًا . .

فهل يؤسس ذلك لليهود حقًا « وطنيًا . . وسياسيًا . . وسياديًا » دائمًا فى القدس وفلسطين ؟

لقد أقام العرب المسلمون وحكموا فى الأندلس ثمانية قرون ، وبنوا فيها المساجد التى لا تزال قائمة حتى الآن . . فهل يرتب ذلك لهم فى إسبانيا والبرتغال حقوقًا « وطنية . . وسياسية . . وسيادية » ؟

ولقد أقام الإسكندر الأكبر المقدونى (٢٥٦ - ٣٢٤ ق.م) فى مصر وغيرها من بلاد الشرق مدنًا ومعابد وإمبراطورية دام حكمها وحكم خلفائه فيها قرابة العشرة قرون - من القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى - . . فهل يرتب ذلك للشعب المقدونى أو الإغريقى أو الرومانى - أو لهم جميعًا - فى مصر والمشرق حقوقًا « وطنية . . وسيادية . . وسياسية » ؟

وقبل الإسكندر ، دخلت كثير من بلاد الشرق تحت حكم « قمبيز » (٥٢٩ - ٥٢١ ق . م) الفارسى . . وفيها بنى المعابد والهياكل والقلاع . .

وقبل « قمبيز » ، حكم الفراعنة - قرونًا متطاولة - أغلب هذه الأقطار ، وأقاموا فيها المعابد ، وتركوا فيها الآثار . . فهل يطالب أهل

مصر . . أو أهل فارس بالسيادة الوطنية والسياسية على تلك البلاد ؟!

● وهذا المعبد الذى بناه سليمان عليه السلام – والذى دمره البابليون مع مملكة يهوذا سنة ٥٨٥ ق . م – هل حقًا ما يدعيه اليهود أن المسجد الأقصى قد بنى على أنقاضه ؟

إن اللجنة الملكية البريطانية قد حكمت سنة ١٩٢٩ م بأن ما يسميه اليهود « حائط المبكى » هو « حائط البراق » – جزء من المسجد الأقصى ، ومعراج رسول الإسلام ، ولا علاقة له بهيكل سليمان . .

ولقد مضى ثلث قرن على احتلال اليهود للقدس الشرقية ، وتكثيفهم البحث والتنقيب وتقليب باطن الأرض بحثًا عن أى أثر أو دليل على دعواهم هذه ، لكنهم لم يعثروا فى كل هذه المنطقة ، وطوال هذه السنين ، على أدنى أثر لهذا الهيكل المزعوم . .

فأين هى العلاقة بين اليهودية واليهود وبين مدينة القدس ؟

● ثم . . هل يهودية التلمود . . ويهودية الصهيونية هى يهودية موسى عليه السلام ؟

إن أسفار التوراة ذاتها شاهدة على نقض اليهود لشريعة موسى ، وعلى استحقاقهم لعنة الله بسبب خروجهم حتى على التوحيد !

كما أن اليهودية المعاصرة – التى تحتل القدس وفلسطين – تعرّف اليهودى بأنه « هو المولود من أم يهودية » . . فالمعيار فيها

« بيـولوچى » ، وليس دينيًـا ، وبذلك أصـبح « يهـود الخـزر » و « الأشكناز » ، الذين لا علاقة لهم ببنى إسرائيل والعبرانيين ، والساميين هم اليهود - وفق هذا المعيار « البيولوچى » - حتى ولو كانوا ملاحدة ، أو أبناء زنا !

فأين هى العلاقة بين اليهودية وبين القدس . . بل وأين هى العلاقة بين هذه اليهودية « العنصرية - البيولوچية » ، وبين يهودية شريعة موسى عليه السلام ؟

هذا هو « المنطق الموضوعى . . المجرد . . بل والبارد » ، الذى نفند به دعوى العلاقة الدينية بين القدس وبين اليهودية واليهود . .

* * *

وبنفس هذا المنطق نناقش « الشبهة » التى تثيرها « وثيقة » رابطة الدفاع اليهودية ، والتى تشكك بها فى قيام علاقة جدية بين القدس وبين الإسلام ، ورسول الإسلام ، والثقافة الإسلامية . . وذلك عندما تقول : « إن دور القدس فى الإسلام يأتى فى مرتبة ثالثة بعد مكة والمدينة . . والقدس ليست قبلة المسلمين فى الصلاة ، ولم تذكر باسمها مرة واحدة فى القرآن ، ولا تذكر على الإطلاق فى صلوات المسلمين ، وهى ليست مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالأحداث التى جرت فى حياة الرسول ، ولم تتحول القدس فى يوم من الأيام إلى مركز ثقافى إسلامى ، أو عاصمة لدولة إسلامية » . .

وما جاء فى آية سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾ [الإسراء : ١] .

تقول عنه « وثيقة » رابطة الدفاع اليهودية ، إنه « مجرد تفسير أموى » لا يعنى مدينة القدس ، فلم يكن هناك يوم نزلت هذه الآية - سنة ٦٢١ م - مسجد فى القدس اسمه (المسجد الأقصى) ، لأن هذا المسجد قد بنى فى العهد الأموى . .

تلك هى دعاوى اليهود ، التى تنفى وجود علاقة بين الإسلام وبين القدس . . وبين الثقافة الإسلامية والدولة الإسلامية وبين القدس . .

وفى الرد على هذه الدعاوى ، وتفنيدها . . نقول :

● إذا كان الحديث النبوى الشريف يجعل القدس ثالث الحرمين - بعد مكة والمدينة - فإنه يجعلها أولى القبلتين ، أى يقدمها - فى الترتيب التاريخى كقبلة للمسلمين - على مكة المكرمة والكعبة المشرفة . . لقد صلى إليها رسول الله ﷺ خمسة عشر عامًا ، ثم توجه إلى الكعبة بالصلاة قبل وفاته بثمانى سنوات . .

ثم إن السنة النبوية قد جعلت القدس على قدم المساواة مع مكة والمدينة فى الاختصاص بشد الرحال . . أى السفر للصلاة فى مساجدها الجامعة - الحرم المكى . . والحرم المدنى . . والحرم

القدسى - . . فهى - القدس - المقدمة - تاريخيًا - كقبلة إسلامية لصلاة المسلمين . . وهى المساوية لمكة والمدينة فى شد الرحال إليها للصلاة . . « لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام . . والمسجد الأقصى . . ومسجدى هذا » (رواه البخارى ومسلم) .

● وعبارة (المسجد الأقصى) فى آية سورة الإسراء تعنى مدينة القدس - كل القدس - ولا تعنى « المسجد » بمعنى البناء المعمارى « للجامع » ، فلم يكن هذا البناء - « الجامع » - قائمًا بالقدس سنة ٦٢١ م ليلة الإسراء . . وكذلك عبارة (المسجد الحرام) فى هذه الآية ، تعنى مكة - كل مكة - ولا تقتصر على الكعبة والمسجد الحرام . . فرسول الله ﷺ عندما أُسرى به لم يكن ساكنًا ولا نائمًا فى المسجد الحرام - « الجامع » - وإنما كان فى مكة ، فالإسراء به قد تم من (المسجد الحرام) - أى مكة - إلى (المسجد الأقصى) - أى القدس - . . وفى ذلك دلالة على اعتبار القرآن كل مكة مسجدًا حرامًا - أى حرمًا مكيًا - وكل القدس مسجدًا أقصى - أى حرمًا قدسيًا . .

● ويزكى هذه الحقيقة ويشهد لها وعليها وبها أن المسلمين ، ومنذ فجر الإسلام ، قد عاملوا القدس ، كمكة ، معاملة الحرم الشريف . . ومن مميزات وامتيازات الحرم فى الإسلام تنزيهه بتحريم القتال وسفك الدماء فيه . . وعندما فتح المسلمون - بقيادة رسول الله ﷺ - مكة سنة ٨ هـ حرصوا على فتحها سلمًا دون قتال ،

لأن الحرم لا يجوز فيه القتال .. وهم قد صنعوا ذلك مع القدس عندما فتحوها سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) .. فلقد حاصروها حتى صالح أهلها على فتحها سلمًا ، وتفردت مكة والقدس بذلك دون جميع المدن التى فتحها المسلمون .. وكما تسلّم رسول الله مكة يوم الفتح ، تفردت القدس - دون كل مدن الفتوحات الإسلامية - بأن استلامها كان من اختصاص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وليس من قبل قائد الجيش الفاتح ، رغم أن هذا القائد كان هو أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة بن الجراح ..

هذا عن مكانة القدس بالنسبة لمكة والمدينة .. وعن ذكرها فى القرآن الكريم ..

● أما دعوى أن القدس لا تذكر فى صلاة المسلمين ، فهى قد تهاوت ، عندما ثبت أن المراد بـ (المسجد الأقصى) - فى آية سورة الإسراء - وهى التى يصلى بها المسلمون فى صلواتهم على امتداد أقطار الأرض ، وآناء الليل وأطراف النهار - هو مدينة القدس الشريف .. كما أن آيات المعراج - فى سورة النجم (١٣ - ١٨) - والتى يتعبد بها المسلمون فى الصلاة وغير الصلاة ، إنما تذكرهم بالمعراج من القدس الشريف ..

● وإذا كان الإسراء برسول الله ﷺ قد حدث من مكة إلى القدس .. وإذا كان معراجه قد تم من القدس .. فهل يجوز - بعد ذلك - أن تدعى « وثيقة » رابطة الدفاع اليهودية أن القدس « ليست مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالأحداث التى جرت فى حياة الرسول » ؟!

إن هذا الإسراء هو إحدى معجزات رسول الإسلام . . وارتباط القدس بمكة فى هذه المعجزة هو - بتعبير القرآن الكريم - آية من آيات الله . . كما أن المعراج من القدس ، هو الآخر ، إحدى معجزات الرسول ﷺ . .

فكيف يكون ، وأين يكون الارتباط المباشر بحياة الرسول ، إذا لم يكن هذا هو الارتباط ؟!

لكل ذلك ، غدت الرابطة بين القدس ومكة عقيدة دينية إسلامية ، وآية تتلى فى القرآن ، وترتل فى الصلوات الإسلامية ، ومعجزة من معجزات الرسالة الإسلامية . . وواحدة من عقائد الجهاد الإسلامى ، تحدث عنها صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م) فى رسالته إلى « ريتشارد قلب الأسد » (١١٨٩ - ١١٩٩ م) - إبان الحروب الصليبية - فقال عن القدس : « من القدس عرج نبينا إلى السماء ، وفى القدس تجتمع الملائكة ، لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها أبدًا ، كما لا يمكن بحال أن نتخلى عن حقوقنا فيها كأمة مسلمة . . ولن يمكّنكم الله أن تشيدوا حجرًا واحدًا فى هذه الأرض طالما استمر الجهاد » . .

● أما دعوى « وثيقة » رابطة الدفاع اليهودية ، أن القدس « لم تتحول فى يوم من الأيام إلى مركز ثقافى إسلامى » ، فيفندها ويدحضها مكانة القدس فى الثقافة الإسلامية عبر أكثر من أربعة عشر قرنًا متواصلة . .

فالمسلمون هم الذين أطلقوا على هذه المدينة اسم : القدس . . وبيت المقدس . . والحرم القدسى . . والقدس الشريف . . فجعلوا من القداسة اسمًا لها ، وعنوانًا عليها ، يعبر عن قداستها ومكانتها المقدسة فى الثقافة الإسلامية والعقل الإسلامى والوجدان الدينى الإسلامى . .

وكما « جاور » العلماء والزهاد والعباد والمجاهدون وطلاب العلم فى الحرم المكى والحرم المدنى ، ظلوا عبر تاريخ الإسلام « يجاورون » فى الحرم القدسى . .

وحجم الأشعار التى نظمها شعراء الإسلام فى الحرم القدسى يبلغ المجلدات فى ديوان الأدب الإسلامى . . فلقد كانت دائمًا - عندهم - رمز الصراع بين الحق والباطل ، ومفتاح الانتصارات ، ورمز الاستقلال والتحرر من موجات الغزو والغزاة . .

وهيّجْتَ للبيت المقدس لوعة　　　يطول بها منه إليك التشوّق

هو البيت إن تفتحه ، والله فاعل　　　فما دونه باب من الشام مغلق

وذلك فضلاً عن مئات المخطوطات التى كتبت فى مناقب وفضائل هذا الحرم القدسى الشريف . .

● أما أن هذه المدينة - القدس - « لم تكن فى يوم من الأيام عاصمة لدولة إسلامية » - كما تقول « وثيقة » رابطة الدفاع اليهودية - فهى دعوى - ككل الدعاوى التى فندناها - لا حظٌ لها من المنطق الذى يقيم دليلاً على المقاصد التى يريدها اليهود . .

فالدولة الإسلامية - منذ ظهور الإسلام ، وحتى إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ م - كانت دولة خلافة جامعة ، اختصت بمركز العاصمة فيها مدن معدودة ، لا تتجاوز الست - هى : المدينة . . والكوفة . . ودمشق . . وبغداد . . والقاهرة . . والآستانة - . . فهل يعنى ذلك أن كل مدن الإسلام - والتى تعد بالآلاف - فى عالم الإسلام ، من « غانة » - غربًا - إلى « فرغانة » - شرقًا - ومن حوض نهر الفولجا - شمالاً - إلى جنوب خط الاستواء - جنوبًا - . . هل معنى ذلك أن كل هذه المدن ليست إسلامية ؟ أو لا أهمية لها فى حياة الإسلام والمسلمين ، أو لا حق فيها للمسلمين ؟!

ثم . . إن مكة المكرمة ، لم تكن فى يوم من الأيام عاصمة لدولة إسلامية . . فهل يعنى ذلك أنها لا أهمية لها فى حياة الإسلام والمسلمين ؟!

● ومع هذه المكانة للقدس فى القرآن الكريم . . وفى معجزات رسول الإسلام . . وبين المدن الإسلامية الثلاث ، التى تميزت بالحرمة ، فغدت حرمًا آمنًا ومقدسًا فى وجدان المسلمين وحياتهم العلمية ، والفكرية والثقافية والأدبية والروحية . . فلقد تميزت السيادة الإسلامية على القدس ، عبر تاريخها الإسلامى ، بميزة تفردت بها القدس الإسلامية عن حياة هذه المدينة - إبان اغتصابها من قبل الآخرين . . ففى الحقب التى انحسرت فيها السيادة الإسلامية والعربية عن القدس ثم احتكارها من قبل

الغاصبين ، بينما تميزت السيادة الإسلامية عليها بإشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات من مختلف المذاهب والديانات . . حتى غدت هذه الحقيقة قانونًا فى تاريخ هذه المدينة المقدسة ، لم يعرف التخلف أو الاستثناء .

لقد احتكرها الرومان – فى عهد وثنيتهم – دون النصارى واليهود . . فلما تدينت الدولة الرومانية بالنصرانية احتكرت القدس دون اليهود ، بل ودون المذاهب النصرانية التى لا يرضى عنها الرومان !

وعندما اغتصبها الصليبيون الفرنجة ، احتكروها دون المسلمين واليهود . . واليوم ، يصنع الصهاينة هذا الاحتكار للقدس ، بالتهويد ، وبتهديد المقدسات غير اليهودية ، وتقليص الوجود العربى – الإسلامى والمسيحى – فى هذه المدينة . .

على حين سجل التاريخ الإسلامى للقدس ، أن المسلمين هم الذين سمحوا لليهود بالعيش فيها ، والتعبد بها ، بعد أن كان أهلها النصارى – إبان الفتح الإسلامى لها – يطلبون ألا يسكن فيها أحد من اليهود ولا من اللصوص !

وفى عهدها الإسلامى أشاع المسلمون قداستها وقدسيتها لكل أصحاب المقدسات ، على اختلاف المذاهب وتعدد الديانات . . لا لمجرد « التسامح الإسلامى » ، وإنما لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا يكتمل الإيمان به إلا بالإيمان بكل النبوات والشرائع والرسالات . . فالمسلمون وحدهم – بحكم عقيدتهم الدينية – هم

الذين يعترفون بالآخرين ، ويؤمنون بقدسية وحرمة مقدسات هؤلاء الآخرين ، ومن ثم فإنهم وحدهم - بحكم هذه العقيدة ، التى صدّقت عليها الممارسات التاريخية - المؤتمنون على كل مقدسات هذا الحرم القدسى الشريف . . فإسلامية السيادة على هذه المدينة ، ليست مصلحة إسلامية خاصة ، ولا امتيازًا فلسطينيًا وطنيًا ، ولا ميزة قومية عربية . . وإنما هى - أولاً وقبل كل شىء - الضمان لبقاء القدس حرمًا آمنًا لكل الذين يعبدون الله . .

تلك هى حقيقة قضية القدس . . وعلاقتها ومكانتها بين اليهودية والإسلام . .

وبمثل هذا المنطق يجب أن يكون الحوار مع الآخرين . . والتفنيد لدعاوى الخصوم . . فبه نقنع المحاورين . . ونزداد يقينًا بحقنا المشروع فى القدس الشريف . . ونسحب البساط من تحت أقدام الخصوم . . ويكون حوارنا مع العالم حوار العلم بمنطق العلماء .

والله - سبحانه وتعالى - أعلم . .

القدس - كل القدس - حرم مقدس . . كما أن مكة - كل مكة - حرم مقدس . . ولقد أطلق القرآن الكريم على هذه المدينة المقدسة مصطلح « المسجد » قبل الفتح الإسلامى لها ، وقبل بناء المساجد الإسلامية فيها . . فهى « مسجد » كما أن مكة «مسجد» - أى قبلة للساجدين - . . حدث ذلك منذ العام الثانى قبل الهجرة - عام معجزة الإسراء - : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾ [الإسراء : ١] ، فالإسراء قد حدث من مكة إلى القدس - المسجد - . . وهو قد أقام رباطًا بين هذين الحرمين المقدسين ، هو آية من آيات الله ، سبحانه وتعالى . . وهو رباط يجسد وحدة الدين الإلهى عبر كل النبوات والرسالات . . فالمسجد الحرام ، الذى هو أول بيت وضع للناس فى الأرض ، والذى أصبح قبلة أمة الرسالة الخاتمة ، عندما يربط الله - بالإسراء - بينه وبين القدس - قبلة النبوات السابقة - إنما يرمز بذلك إلى وحدة الدين الإلهى ، وإلى اكتماله بالإسلام ، وإلى جمع العقيدة الإسلامية الإيمان بكل الرسل والرسالات من آدم إلى محمد ، عليهم الصلاة والسلام . . لا نفرق بين أحد من رسله . .

وإذا كان المسلمون هم الذين سموا هذه المدينة : « القدس » ، و « القدس الشريف » ، و « بيت المقدس » ، و « الحرم القدسى » ،

منذ فتحهم لها (سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م) - وذلك بعد أن كان اسمها يومئذ « إيليا الكبرى » - فلقد صنعوا ذلك ليعلنوا بهذه الأسماء القدسية عن قداستها ، ولم يكن قد قام فيها يومئذ مسجد من مساجد الإسلام ، ولا دخل أحد من أهلها فى دين الإسلام !

لقد عاملوها - كما شاء الله لها - معاملة الحرم المقدس . . وتجلى هذا الاعتقاد الإسلامى فى أحداث الفتوح . . فكما أن مكة حرم مقدس ، ولذلك لا يحل فيها القتال . . كذلك عامل الفاتحون المسلمون القدس ، فحاصرها جيش المسلمين ، بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، حتى رغب أهلها فى الصلح ، دونما قتال ، لأنها حرم لا يحل فيها القتال . . بل لقد ظلت هذه الحرمة عقيدة إسلامية مرعية عبر عصور التاريخ . . فعلى الرغم من أن الصليبيين الذين اقتحموا القدس عنوة (٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م) قد أبادوا جميع من بها من المسلمين ، عندما أقاموا فيها مجزرة دامت سبعة أيام ، لم يسلم من الذبح فيها حتى الذين احتموا بالمسجد الأقصى ، فذبحهم الصليبيون ، حتى جرت الدماء فى المسجد كالنهر ، وسبحت فيه خيول الصليبيين حتى لُجُم هذه الخيول !! . . على الرغم من ذلك ، عامل صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م) هذه المدينة المقدسة معاملة الحرم الذى لا يجوز ولا يحل فيه القتال . . فحاصرها (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) حتى صالح الصليبيون فيها على التسليم . . فهى ليست مجرد مدينة . . وإنما هى حرم ، وبعبارة صلاح الدين : « إنها إرثنا وإرث كل أصحاب الديانات . . فيها تجتمع الملائكة . . ومنها عرج نبينا إلى السماء » . .

ولتقديس الإسلام لهذه المدينة ، باعتبارها مسجدًا وحرمًا وقبلة للنبوات السابقة . . ولأن الإسلام وحده هو الذى جعل الإيمان بالنبوات والرسالات السابقة جزءاً من عقيدته ، تميزت السلطة الإسلامية عبر تاريخ السيادة السياسية للدولة الإسلامية على مدينة القدس ، بإشاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات من أبناء كل الديانات السماوية . . فكانت الدولة الإسلامية وحدها والسلطة الإسلامية دون سواها هى المؤتمنة والأمينة على المقدسات غير الإسلامية فى هذا الحرم القدسى الشريف . . بينما كان العكس - أى الاحتكار - هو موقف كل السلطات غير الإسلامية التى استولت على مدينة القدس . . فالرومان قد احتكروها لأنفسهم ، دون اليهود والنصارى ، فى حقبة الوثنية الرومانية وبعد أن دخلوا فى النصرانية احتكروها دون اليهود . . وعندما فتح المسلمون القدس ، كان من مطالب أهلها - النصارى - ألا يسكن فيها أحد من اليهود ولا أحد من اللصوص ! . . وصنع هذا الاحتكار أيضًا الصليبيون ، الذين احتلوها تسعين عامًا ، فبعد أن ذبحوا اليهود مع المسلمين ، احتكروا مقدسات المدينة ، حتى لقد حولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية ، وإلى اصطبل لخيول فرسان الإقطاع اللاتين ! . . ونفس الاحتكار يصنعه الصهاينة اليوم ، عندما يطاردون الوجود العربى فيها - إسلاميًا ونصرانيًا - ويهددون المقدسات بالاستيلاء والهدم والتحويل !

والفارق بين المسلمين وغيرهم فى هذه القضية - إشاعة قدسية القدس أو احتكارها - ليس مجرد تسامح يقابل التعصب . . وإنما هو دين واعتقاد دينى . . فالإسلام وحده هو الذى يعترف بكل

الرسالات والشرائع الدينية ، ومن ثم يعترف بقدسية مقدسات أهلها ، ولقد جعلت دولته من أمان وتأمين غير المسلمين على عقائدهم وصلبانهم وكنائسهم - مع أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم - دينًا وعهدًا وميثاقًا . . بينما اليهودية لا تعترف لا بالمسيحية ولا بالإسلام . . والنصرانية تتخذ نفس الموقف من الآخر الدينى ومن مقدساته . . ولذلك ، لم تكن صدفة ، ولم يكن مجرد تسامح أن تشيع قدسية القدس بين كل أصحاب المقدسات ، فى ظل السيادة الإسلامية على القدس ، وأن تقع هذه المدينة وقداستها فى الاحتكار عندما يحتلها الآخرون . . الأمر الذى يجعل من السيادة الإسلامية على القدس المصلحة المحققة لكل أصحاب الديانات ، وليس فقط للمتدينين بدين الإسلام . . ولأن هذه هى حقيقة الاعتقاد الإسلامى ، التى جسدتها السيادة الإسلامية على القدس ، فلقد رأينا - عبر تاريخ هذه المدينة المقدسة - حجج أوقاف الكنائس النصرانية تنص على أن يكون «نظار» هذه الأوقاف الكنسية من المسلمين . . بل وتنص كثير من هذه الحجج على أن تكون « مفاتيح » الكنائس بيد أسر مقدسية مسلمة !

* * *

ولأن هذا هو مقام القدس فى عقيدة الإسلام والمسلمين . . وموقعها فى التاريخ الإسلامى . . ومكانتها فى الدولة الإسلامية . . فإننا يجب أن نتعامل معها ، فى هذا الطور من أطوار الصراع التاريخى حولها وعليها ، باعتبارها أكثر من قطعة أرض . .

وأعظم من مدينة . . وأهم من عاصمة للدولة الفلسطينية . . وأخطر من كونها قلب الصراع العربى الصهيونى . . إنها كل ذلك وأكثر من ذلك . . إنها جزء من عقيدة أمة يبلغ تعدادها مليارًا وثلث المليار ، وليست مجرد قضية وطنية لثمانية ملايين من الفلسطينيين ، ولا مجرد مشكلة قومية لأقل من ثلاثمائة مليون عربى . . إنها عاصمة الوطن الفلسطينى . . ومحور الصراع العربى الصهيونى ، وفوق كل ذلك ، إنها عقيدة إسلامية ، وحرم مقدس ، والرباط بينها وبين الحرم المكى هو التجسيد لعقيدة وحدة دين الله ، التى جاء بها الإسلام . . فإسلامية القدس ، وإسلامية موقفنا فى الصراع حولها ، يضيف للإمكانات الوطنية الفلسطينية والطاقات القومية العربية ، ولا ينتقص منها . . بل إن هذه الإسلامية لقضية القدس ، هى - كما أشرنا - فى مصلحة سائر أصحاب المقدسات من سائر المتدينين بالديانات . .

* * *

وإذا كانت هذه هي حقيقة أبعاد موقفنا من قضية القدس . . فإن الوعى بهذه الحقيقة ، واستدعاء طاقات هذه الأبعاد الإسلامية . . تتزايد وتشتد عندما نعلم أبعاد الموقف المعادى إزاء هذه المدينة المقدسة . .

صحيح أننا نواجه - فى القدس وفلسطين - مشروعًا استعماريًا استيطانيًا عنصريًا ، لكنه ليس كغيره من المشاريع الاستيطانية العنصرية - كالذى قام فى جنوب إفريقيا مثلاً - وإنما نواجه أبعادًا أسطورية دينية لهذا المشروع الاستيطانى الاستعمارى العنصرى ، تجعل من استدعاء الأبعاد الدينية الإسلامية لموقفنا من هذه

القضية ضرورة صراعية ، فضلاً عن أنها دين واعتقاد . .

فهذا المشروع الاستيطانى العنصرى ، القائم الآن فى القدس وفلسطين ، قد تبلور أول ما تبلور فى « اللاهوت البروتستانتى » الغربى ، انطلاقًا من الفكر الأسطورى حول « رؤيا يوحنا » ، وعودة المسيح عليه السلام ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة ، بعد معركة « هَر مجدّون » ، والذى جعل من جمع اليهود وحشدهم فى فلسطين ، وتهويد القدس ، وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى ، أى جعل من تحقيق العلو الصهيونى دينًا يتدين به البروتستانت فى الغرب . . ثم حدث التبشير بهذا المشروع البروتستانتى بين الجماعات اليهودية ، فتلقفته الصهيونية - كحركة قومية عنصرية- والإمبريالية الغربية - إبان زحفها على الشرق الإسلامى - وبحثها عن أقليات توظفها - كمواطئ أقدام - فى المشروع الاستعمارى . . فاجتمعت لهذا المشروع الاستيطانى الاستعمارى العنصرى عناصر متعددة ومركبة ، منها :

١ - البعد الدينى فى لاهوت النصرانية الغربية . . وهو الذى بدأ بروتستانتيًا ، ثم مارس الابتزاز والتأثير على الكنيسة الكاثوليكية الغربية ، حتى جعلها تشرع فى « تهويد نصرانيتها » - بدلاً من تحقيق الاعتراف اليهودى بالنصرانية ! - فهى الآن تسعى لتجعل « يَهْوَه » إلهها ! . . وتتحدث عن « دمج المسيح فى إسرائيل » . . وتعدّل ، ليس فقط فى « الفكر المسيحى » ، وإنما فى « الأناجيل والصلوات » ! . . لتصل إلى طلب « الغفران » من اليهود ، بعد أن عاشت قرونًا تبيع « صكوك الغفران » !

٢ - والبعد الاستعماري العلماني - بل والدهري الوضعي والمادي - . . فبونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) الوضعي الدهري . . هو أول من دعا إلى توظيف هذه الأساطير الدينية في خدمة مشروعه الاستعماري . . و « سايكس » - السياسي الاستعماري الإنجليزي - الذي عقد مع « بيكو » - الفرنسي - معاهدة «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦ م لتمزيق الدولة العثمانية ، وتوزيع أجزائها العربية بين القوى الاستعمارية . . قد أقاموا له تمثالاً في قريته « سلدمير » - بمقاطعة « يوركشاير » . . مكتوب عليه : «ابتهجي يا قدس» ! . . فالقدس هي هدف الاستعمار الغربي العلماني ، كما هي هدف اللاهوت النصراني الغربي . .

وعندما دخل الجنرال الإنجليزي « اللنبي » القدس سنة ١٩١٧ م ، تقمص صورة بابوات الحروب الصليبية ، فقال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ! . . ويومها نشرت مجلة « بنش » (Punch) الإنجليزية رسمًا يمثل « ريتشارد قلب الأسد » - الملك الصليبي - وهو يقول : « الآن تحقق حلمي » !

أما الجنرال الفرنسي « جورو » - الذي يرفع راية العلمانية الفرنسية المتطرفة - فهو الذي يذهب - عند دخوله دمشق سنة ١٩٢٠ م - إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ، ليركله بقدمه ، ويقول : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » !

فالبعد العلماني الغربي ، يحالف ويعانق ويساند ويوظف البعد اللاهوتي الغربي في الصراع على القدس وفلسطين .

٣ - والبعد الإمبريالي الأمريكي المعاصر ، الجامع بين الدين

والاستعمار، ها هو يوظف « المسيحية - الصهيونية » فى خدمة « تَدْيين » الاغتصاب الصهيونى الغربى للقدس وفلسطين . . فالكونجرس الأمريكى، عندما يقرر فى سنة ١٩٩٥ نقل السفارة الأمريكية إلى القدس - وبناءها على أرض الأوقاف الخيرية الإسلامية ! - يقول، فى مقدمة قراره هذا : « إن القدس هى الوطن الروحى لليهودية » ! . . مع أن هذه القدس لم يرها نبى اليهودية موسى عليه السلام ولم تنزل فيها توراة اليهودية . . وإذا كان داود وسليمان عليهما السلام قد عاشا فيها برهة من تاريخها الطويل، فهما - بنظر اليهود - ملوك وليسوا رسلاً ولا أنبياء . . فلم ؟ . . ومتى كانت القدس الوطن الروحى لليهودية ؟! . . إن الإمبريالية تحول الأساطير إلى دين تدعم به الاغتصاب !

٤ - وأخيرًا، البعد العنصرى الصهيونى، الذى حول اليهودية إلى عنصرية صرفة، لا علاقة لها بذلك الدين السماوى الذى أنزله الله على موسى عليه السلام . . فتعريف اليهودى - فى دائرة معارف كيانها الاستيطانى - هو « المولود من أم يهودية » . . أى أن هذا العامل « البيولوچى »، وليس التدين بالدين، هو الذى يحدد يهودية اليهودى . . فالمولود من أم يهودية - حتى ولو كان ابن زنا . . أو ملحدًا - يصبح يهوديًا، ومن شعب الله المختار، وصاحب الحق فى الاستيطان والاغتصاب للقدس وفلسطين !!

هكذا، نواجه - فى القدس وفلسطين - استعمارًا استيطانيًا إمبرياليًا عنصريًا، يوظف الأساطير والأوهام والأكاذيب، ليجعلها دينًا يدعم المشروع الاستعمارى، و « روحانية » تغلف الاستيطان

العنصرى . . فهل نترك العدو يدعم الباطل بالأساطير . . ونهمل - نحن - تأييد الحق الفلسطينى الوطنى ، والمطلب العربى القومى بحقائق الوحى الإلهى ، وصادق الاعتقاد الدينى ، وناصع صفحات واقع الحضارة والتاريخ ؟!

إن الذين يخافون من « أسلمة » الصراع حول القدس وفلسطين - حتى إذا حسنت نواياهم - هم كالسفهاء ، الذين لا يعرفون قيمة « الأسلحة الإيمانية » ، التى ورثوها عن الأجداد فى هذا الصراع التاريخى الطويل . . وهم بهذا السفه إنما ينزعون من الأمة أمضى أسلحتها فى هذا الصراع ، فيرجحون بذلك كفة الأعداء فى هذا الصراع . .

إن إسلامية القدس ، هى « الحق » الذى نفل به أساطير الأعداء . . وهى لا تنتقص من الإمكانات الوطنية الفلسطينية والطاقات القومية العربية فى هذا الصراع ، وإنما تضيف إليهما طاقات الاعتقاد الإسلامى وإمكانات أمة الإسلام . .

كما أن هذه الإسلامية لا تهدد جهادنا بشبهة « الحرب الدينية » ، التى يخافها كثيرون ، لأن إسلامية القدس هى وحدها ضمان شيوع قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات ، من كل الديانات . . ومن ثم فإنها ضمان عدم احتكارها . . وهو الاحتكار الذى يهددها بالتهويد فى هذه الأيام . . .

* * *

الفهرس

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا
- ا . فهمى هويدى
- د . يوسف القرضاوى
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام
- د . عبدالوهاب المسيرى
- د . شريف عبدالعظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

944

٣٠٠

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨